إلى أين المصير؟

ما كنتُ يوماً من البَرمين المتشائمين، الناظرين إلى هذه الحياة بمنظارها الأسود القاتم، لأني أؤمن ان مَن يتفاءل بالخير، لا بدّ من ان ينال الخير وإن كان بعيداً عنه، ومَن يترقب الشر سيصيبه الشر، وإن كان ليس هناك أي شر.

ومع ايماني الشديد بهذه النظرية، أرى اننا سائرون نحو الفساد العام والدمار الشامل. ذلك اننا فقدنا مروءتنا وعزتنا وكل فضائلنا - الا من رحم ربك - وغدونا ذئاباً في ثياب نعاج، وأبالسة في شكل ملائكة، ومفسدين في لباس صالحين ومصلحين، نُظهر انفسنا بمظهر الغيارى على المصلحة العامة والمُثل العليا، ونحن لا نتورع عن الكذب والغش والخداع. ندّعي المدنية وهي منّا براء، ونفخر بالرقي ولا نعلم منه سوى اسمه، ونعتز بالتقدم ونحن نعود القهقرى مسرعين، إلى عصور الوحشية والظلم وشريعة الغاب، ولكن باسلوب طليّ وطريقة مزخرفة برّاقة.

أمراض الأنا ولو جماعية ضاربة اطنابها، وكثيراً ما نلبسها ثياباً قشيبة مموّهة. وجلسات «الثقة» الأخيرة ما تمليه عليهم نفوسهم الأمّارة بالسوء. انهم يجهلون أو يتجاهلون انه لئن كان الشعب لا يرى خفاياهم، فإن الله يراهم.

معظم سياسيينا يلجأون إلى الكذب والحيلة وإهمال الواجب والتلاعب بمقدرات الوطن كبار يفلتون من قيد العدالة والقوانين على الرغم من ارتكابهم المنكرات، وصغار تكتظ بهم أحياناً المئات على ابواب المحاكم بتهم مختلفة وقد يذهبون ضحايا ما تطلق عليه تسمية «كبش المحرقة». وهذا وسواه اسطع دليل على استهتار بالقوانين وضعف في الأخلاق وخسّة في النفوس.

لو كان هؤلاء «الكبار» يصلحون أنفسهم ويعالجون أمراض الأنا المخجلة، لهان الأمر، ولكنهم - واأسفاه - يسيرون بخطى مسرعة نحو الفساد العام والظلال والفوضى والعنعنات الحزبية والطائفية البغيضة والانانية الهوجاء.

والاغرب من هذا وذاك، ان معظم هؤلاء تركوا أوامر دينهم الذي «عكزوا» عليه، والاديان كلها نور اهتدى بها العالم في أحلك الأزمات ظلماً وهمجية واستبداداً - واصبحوا يدّعون الفهم والمعرفة والمدنية، ثم لا يرعوون عن الكذب والخيانة والغدر، ولا يخشون الله في ما يعملون، ولا يقيمون وزناً لمدنية يتبجحون بها، أو فضائل يتشدقون بها، وما اشبههم بالغراب الذي أراد ان يقلد مشية الحجل، ولما اخفق في ذلك، كان قد نسي مشيته.

فإلى أين المصير؟

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه